علم التفسير
دلالاته وأهدافه واتجاهاته

جميل إبراهيم حبيب

مركز البحوث والدراسات الاسلامية / مبدأ

المقدمة

لم يأخذ علم من العلوم الإسلامية مكانته المتميزة مثل علم التفسير، وقد سجلت صفحات التاريخ الإسلامي عبر العصور المختلفة أشهر مفسري القرآن وابرز التفاسير، وألف العلماء فيها تفاسير بلغت مئات الأجزاء، واستغرقت عشرات الأعوام، وذلك لجلالة مقام هذا العلم بين العلوم الإسلامية، وسمو منزلته بين المسلمين عموما، والعلماء الراسخين خصوصا.

لقد اعتبر جمع القرآن اكبر وأول عملية توثيقية في تاريخ العرب والمسلمين، ونقطة بدء لانطلاق علم التدوين ذاته، وقد تميزت هذه العملية بعناية ودقة تامتين، وصاحب جمع القرآن علم التفسير، الذي ظهر كحاجة إلى فهم ما قد يستغلق على المسلمين فهمه من معاني آياته، فظهرت الضرورة إلى وجود المفسر، واجتهد الصحابة في التفسير، واستخرجوا من الكتاب الكريم أحكاما وتشريعات تيسر لهم مشاكل الحياة وتعقيداتها، ويمضي جيل الصحابة ويليه جيل التابعين الذين أخذوا من علوم الدين ما أخذوا، وكان من بينها علم التفسير، وبالجهد المتواصل ظهرت التفاسير المدونة والتي اعتمدت على الرواية الموروثة المتسلسلة عند الصحابة والتابعين.

وأهداف التفسير كثيرة أهمها الوصول إلى فهم المضامين التي أرادها الله تعالى في كتابه الكريم، ومعرفة ما افترض الله تعالى على عباده وهي من أهم الغايات بالإضافة إلى آثار هامة أخرى تترتب على ذلك.

ولا شك إن المسلمين في سبيل فهم مضامين القرآن يحتاجون إلى تفسيره واعتباره الوسيلة التي توصلهم إلى معرفة المحكم والمتشابه والمجمل والمبين وحكمه وعلله وفرائضه وسننه.

والتفسير منه ما جاء بطريق الأثر كمعرفة الناسخ من المنسوخ وأسباب النزول ومعاني الآيات المنقولة عن السلف، ومنه ما يؤخذ بطرق الاجتهاد، وهو ما يصل إليه المفسر الجامع للشروط عن طريق النظر والاستدلال ومنه ما يسمى في الوقت الحاضر بالتفسير العلمي القائم على الإدراك وإشغال العقل بتوسيع آفاق المعاني المقصودة في الآيات على ضوء الحقائق العلمية ومنهجيتها القائمة على الاستدلال والنظر والتحليل والاستنتاج.

وإضافة إلى كل ما سبق لابد من القول في الختام (وخير المسك خاتمه) أن علم التفسير كان له دوره الحافز في تنشيط العلوم العربية والإسلامية الأخرى كالفقه والحديث واللغة والأدب... الخ، مما يدلل على مكانته الجليلة بين العلوم العقلية والنقلية، ولازال علم التفسير يجاري الزمن ويسابق الأيام ثباتا في العطاء والإبداع، ويتشامخ بين المطالب العلمية والحضارية علوا في المنزلة وتسامياً في المعطيات، وذلك تأكيداً على أن معجزة القرآن خالدة لقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] وأن تفسير معاني كلمات الله بحر محيط مفتوح الآفاق ويحوي علوم الأولين والآخرين.

هذا جهدي ومبلغ علمي فإن أصبت فمن الله وان أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، فإن الكمال لله وحده، وهو يهدي إلى سواء السبيل.

معنى التفسير والفرق بينه وبين التأويل

تحمل كلمة التفسير دلالات سامية ومعاني جليلة وإشارات لطيفة، وترتبط مكانة التفسير بمكانة موضوعه، وموضوعه هو اشرف الموضوعات لأنه كتاب الله عز وجل، وكتاب الله هو الضياء، والغذاء، والدواء، والشفاء... وهو مفتاح السعادة في الدنيا والآخرة[2]... ونور الله بين يدي المؤمنين في الأرض، وحجة الله على خلقه، قال تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3]. حيث طالب الله جل وعلا عباده بان يتعظوا بهذا القرآن، ويعتبروا آياته، بعد أن يتدبروها ويتفكروا فيها، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[4].﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[5]، ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[6].

و(الفسر) لغة يعني (البيان) وبابه ضرب (والتفسير) مثله، و(استفسره) كذا: سأله أن (يفسره)[7] ومن هنا يتبين أن كلمة التفسير مشتقة من كلمة الفسر (بفتح الفاء وسكون السين)، والفسر – أيضاً – كشف المغطى، وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه، فهو تفسرته، واستفسرته، كذا: سألته أن يفسره لي[8]... وتفسير القرآن الكريم هو: بيان كلام الله عز وجل، بذكر مفهوم الكلمات، والعبارات الموجودة في القرآن... وقال بعضهم: التفسير في الاصطلاح هو: علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكييها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومطلقها ومقيدها، ومجملها ومفصلها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها[9].

ويتوضح هنا أن كلمة (تفسير) تدل بصفة خاصة في الإسلام، على تفاسير القرآن، وعلى علم التفسير نفسه الذي يعرف باسم (علم القرآن والتفسير)[10]، وقد يطلق على التفسير كلمة (التأويل) والتأويل هو تفسير ما يؤول إليه الشيء[11]، والتأويل لفظ مأخوذ من (الأول)[12] وهو: الرجوع، فكأن المفسر صرف الآية، وعاد بها إلى ما تحتمله من المعاني... وقيل أنه مأخوذ من (الإيالة) وهي السياسة، فكأنما المسؤول للكلام ساس الكلام، ووضع المعاني فيه موضعه...[13].

ولما استعملت كلمة (التأويل) مع كلمة (التفسير) اختلف العلماء في العلاقة بينهما: أهما متحدتان أم مختلفتان!! فقالت طائفة: هما بمعنى واحد... وقال الما تريدي: التفسير على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله تعالى أنه عني باللفظ- هذا- والتأويل: ترجيح أحد محتملات بدون القطع والشهادة.

وقال أبو الطيب التغلبي: التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، والتأويل تفسير باطن اللفظ... الخ[١٤].

ولعل أحسن ما يُقال هنا ما نقل عن الراغب الأصبهاني وهو أن التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا... والتأويل يستعمل أكثره في الجمل... ومهما يكن من شيء فقد أصاب ابن فارس في كتابه (الصاحبي) حين قال: إن «معاني العبارات التي يعبر بها عن الأشياء ترجع إلى ثلاثة: المعنى، والتفسير، والتأويل، وهي وإن اختلفت فالمقاصد بها متقاربة»[١٥].

وقد يطلق على التفسير كلمة الحكمة فقد نقلوا في تفسير ابن عباس ﷺ[١٦]، قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾[١٧] الخ أن الحكمة: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله وفي رواية عن ابن عباس ﷺ في معنى الحكمة: يعني تفسيره فإنه قد قرأه البر والفاجر...»[١٨] الخ.

ويطلق اسم (أصحاب المعاني) على مصنفي الكتب في معاني القرآن كالزجاج والفراء وابن الأنباري، ولعل ذلك لأنهم كانوا يسمون تفسيرهم باسم (معاني القرآن) وللزجاج كتاب اسمه (معاني القرآن)[١٩] لم يصنف مثله كما يقول الزرقاني وغيره[٢٠].

وقد قيل في التفسير والتأويل ومعانيه الكثير شرحا واستدلالا بما يملأ آلاف الصفحات وتتشكل منها المجلدات الضخام، وتنافست المدارس الإسلامية في الخوض فيها، شرحا واستبصاراً، وهي مبسوطة في ثنايا سطور تلك الكتب والأسفار، ولا زالت الجهود مستمرة في تقديم المزيد والإضافة إلى تلك الثروات النفيسة لتلك الشروح والتعليقات والتحليلات...

مراحل التفسير وأنواعه:

مر علم التفسير في مراحل عدة ومتواصلة وكل مرحلة مكملة لما قبلها وقد تدرج التفسير بعد رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، وتشعب إلى مناهج شتى، فمنه التفسير بالقرآن، ومنه التفسير بالحديث، ثم تبعه التفسير بالرأي والعقل، ثم التفسير باللغة، والتفسير

الصوفي الذي يعتمد على الإشارات والرموز التي تحتاج هي الأخرى إلى التفسير، ثم التفسير السياسي الذي أقحمه أصحاب المذاهب السياسية لدعم أرائهم ضد خصومهم، ثم التفسير العلمي.

وقد انطبعت كتب التفاسير غالبا باتجاهات أصحابها [٢١]، وقد أثبتت الدراسات القرآنية عبر حلقات تطورها أن علم التفسير نشأ بجهود أعلام التفسير منذ عهد الرسول ﷺ وابتداءً به وبأصحابه ومن تبعهم بإحسان ويمكن توضيح ذلك بالنقاط الآتية[٢٢]:

١. لم تكن وظيفة رسول الله ﷺ مقصورة على التبليغ عن ربه، فقد كلف مع التبليغ بيان ما يبلغه، يدل هذا قوله جل ثناؤه لنبيه ﷺ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٦] وقولـــــه تعـــــالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل:٦٤].

أما تلك الآيات الكثيرة التي تحصر وظيفته، رسول الله ﷺ في البلاغ أو الإنذار، وما إليهما فان الحصر فيها إضافي، أريد به تذكيره رسول الله ﷺ بأنه لا يهدي من أحب، وليس من وظيفته حمل الناس على الإيمان قسرا، بل ليس هذا في وسعه، حتى لا يأس على عنادهم بعد أن دعوا، ولا تذهب نفسه حسرات عليهم، فيتسلى ويثبت، وهذه بعض الشواهد القرآنية على ما ذهبنا إليه فمنها:

﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[٢٣]، ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [٢٤]. ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾[٢٥]. ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾[٢٦]، ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾[٢٧]، ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[٢٨]. ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[٢٩].

٢. من هنا جاء الأمر في القرآن بإتباع الرسول ﷺ في كل ما يبلغه عن ربه، وكل ما يبين به القرآن الكريم من سنته، قولاً كانت هذه السنة، أو عملاً أو تقريراً بل جاء هذا الأمر مؤكدا، حاسما، في أكثر من آية أو بأكثر من أسلوب وحسبنا هذه الآيات: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[٣٠]، ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[٣١]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[٣٢]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[٣٣]، ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٣٤].

ومن هنا أيضاً اعتبرت السنة التي صحت روايتها عن الرسول ﷺ [٣٥] هي المصدر الثاني من مصادر التشريع[٣٦] بعد القرآن الكريم، إذ هي تفسير مبهمه، وتفصل مجمله،

وتخصص عامه، وتقييد مطلقه، فوق ما تستقل بشرعه من أحكام جزئية وضع القرآن أصولها وأرسى قواعدها.

٣. كان الرسول ﷺ هو أول مبيّن للقرآن إذن، ولم يكن بيان القرآن قد عرف بعد باسم التفسير، وعن رسول الله ﷺ تناقل الصحابة ما بين به من القرآن، سُئل بها أو رأى أن يبين لهم المراد بها.

وقد كان من بين هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم جميعاً، علماء بالقرآن اشتهروا بتفسيره كالخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ، والعبادلة الأربعة: عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، وبعض كتاب الوحي كأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ثم أبي موسى الأشعري، وأبي هريرة وجابر بن عبد الله ﷺ[٣٧] وغيرهم.

كذلك كان بين التابعين وتابعيهم علماء عرفوا بأنهم مفسرون للقرآن ومن بين هؤلاء أصحاب عبد الله بن عباس بمكة: عكرمة مولاه، ومجاهد بن جبير، وسعيد بن جبير، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح... كذلك نجد من بينهم أصحاب عبد الله بن مسعود بالكوفة: علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، وإبراهيم النخعي، وعامر بن شراحيل الشعبي، ثم عطية بن سعد العوفي وهو ضعيف، كذلك من بينهم: زيد بن أسلم بالمدينة، وراوي تفسيره الإمام مالك بن أنس[٣٨]، ومحمد بن كعب، والحسن البصري، وربيع بن مهران أبو العالين، وقتادة بن دعامة السدوسي بالبصرة، وأخيرا نجد الربيع بن أنس بالبصرة، ثم بخراسان، والضحاك بن مزاحم الهلالي بخراسان أيضا، والسدي الكبير(إسماعيل بن عبد الرحمن)، وهو حجازي سكن الكوفة، وغير هؤلاء وأولئك كثير.

٤. وقد تلقى التفسير عن هؤلاء (وهم بالكوفة والبصرة)[٣٩] تابعون ممن جاؤوا بعدهم، والذين كان لهم أثرهم الكبير على مدرسة بغداد في التفسير بعد تمصيرها وجعلها عاصمة للدولة العباسية– تلقوه آثاراً، كانوا يتناقلونها بأسانيدها، حتى تلقفها منهم أوائل المدونين في التفسير، وشيوخ المحدثين من أصحاب الكتب الستة وغيرهم[٤٠].

ولابد من التقرير هنا أن التفسير المطبوع والمنسوب للإمام عبد الله بن عباس ﷺ لم يروَ كله بأسانيد صحيحة، فلا يصح أن ينسب على إطلاقه إليه، وإنما يصح أن ينسب إليه منه ما روي بأحد الأسانيد الآتية:

- مالك، عن الزهري، عن عبيد الله بن عتبة، عن ابن عباس.
- سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس.

- معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله عتبة، عن ابن عباس.

أما رواية علي بن أبي طلحة الهاشمي عنه فهي منقطعة، وأما تفسير ابن مجاهد ومعروف انه كان من تلاميذ ابن عباس، فقد قال عنه ابو بكر بن عياش: «قلت للأعمش: ما لهم يقولون: تفسير مجاهد؟، قالوا: كانوا يرون انه يسأل أهل الكتاب»[٤١].

وليس– معنى الكلام هذا كما هو واضح– رد كل ما روي عن ابن عباس في التفسير، ولكن معناه– دراسة– أسانيد ما روي عنه(بدقة)، قبل قبوله أو رفضه فإن كان إسناده صحيحا قبل وإلا رفض[٤٢].

٥. أما المدونون في التفسير– وهم كثيرون– من أقدمهم عبد الرزاق بن نافع الحميري مولاهم (ت٢١١هـ) وهو الراوي الصدوق الثقة الذي قبل روايته وخرج له، جميع المحدثين، فقد دون من روايته عن شيوخه تفسيرا كاملا، توجد نسخة مخطوطة منه بدار المخطوطات بالقاهرة، ويعتبر أصلا لجميع كتب التفسير بالراوية بعده[٤٣]. كذلك يوجد من بين القدامى محمد بن جرير الطبري في تفسيره «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»[٤٤]. وهو مطبوع مشهور متداول، وقد أملى الطبري تفسيره هذا في بغداد من سنة ثلاث وثمانين ومائتين إلى سنة تسعين[٤٥]. أي أكثر من سبع سنوات، والذي يعنينا هنا هو قيمة هذا التفسير، الذي أجمعت الأمة– قديما وحديثا ومعاصرا ومستقبلا– على عظم قدره، وسيظل حافظا على قيمته.

أما المحدثون– فوجد منهم عناية خاصة وفائقة– بإيراد الآثار التي صحت روايتها في الجامع الصحيح لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري(ت٢٥٦هـ) والجامع الصحيح لأبي الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ)[٤٦]. وسنن كل من الترمذي (محمد بن عيسى بن أبي عيسى السلمي) (ت ٢٧٩هـ) وأبي داود سليمان الأشعث الازدي السجستاني، (ت٢٧٥هـ)، وابن ماجة (محمد بن يزيد القزويني) (ت٢٧٥هـ) وفي المجتبى للنسائي (أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب) (ت٣٠٣هـ)، وغيرهم لم نذكرهم، وذلك لغلبة شهرة هؤلاء المذكورين عليهم.

٦. أما عن اتجاهات المفسرين فيمكن القول وبناءً على تلك النقاط السالفة، أنه إذا كانت هذه نشأة علم التفسير فَإنه لم يقف عندها، بل عراه من التطور وتعدد المناهج والاتجاهات ما عرا غيره من العلوم، فقامت إلى جانب مدرسة التفسير بالمأثور، مدرسة أخرى تعتمد في التفسير على الرأي، ومدرسة ثالثة تجمع بين الرواية والرأي، وتعتمد عليهما معا في التفسير.

والذي لاشك فيه أن ثمة عدة مفسرين استطاعوا أن يجمعوا في كتبهم بين الرواية والرأي في أمانة، دون شطط ولا انحراف.

غير أنه هناك مفسر هو من أقدم المدونين في التفسير وأذكاهم، كان يعتمد في تفسيره الاعتماد كله على الرأي أو يكاد، ثم لم يلتزم مع براعته في التفسير بالرأي، أن يكون أمينا فيما يذكر في تفسيره من آثار.. وهذا المفسر هو: مقاتل بن سليمان الازدي الخراساني المتوفى سنة ١٥٠هـ، وهو الذي قال فيه الشافعي ﷺ كما روي عنه من وجوه (الناس عيال على مقاتل في التفسير) وقال إبن مبارك لما نظر إلى شيء من تفسيره (يا له من علم لو كان له إسناد)، وقال نعيم بن جاد: «رأيت عند بن عيينة كتاب لمقاتل، فقلت: يا أبا محمد: تروي لمقاتل في التفسير؟ قال: لا، ولكن استدل به واستعين»[٤٧].

لقد كان مقاتل هذا من أذكى العلماء وأسرعهم بديهة- كما تمت الإشارة إليه سابقا- ولعل مما يدل على ذكائه ما روي من أن أبا جعفر المنصور كان جالسا، فسقط عليه الذباب فطيره، فعاد إليه وألح عليه، وجعل يقع على وجهه، وأكثر من السقوط عليه مرارا حتى أضجره، فقال المنصور: انظروا من بالباب! فقيل له: مقاتل بن سليمان.

فقال: علي به، فأُذن له، فلما دخل عليه، قال له: هل تعلم لماذا خلق الله الذباب؟ قال: نعم، ليذل به الجبارين فسكت المنصور[٤٨].ولم يعقب على كلامه شيئا، وما رواه الأمام مالك بن أنس ﷺ أنه بلغه أن مقاتل بن سليمان جاءه إنسان فقال له: أن إنساناً جاءني فسألني عن لون كلب أصحاب الكهف، فلم ادر ما أقول له! فقال: له مقاتل، ألا قلت له أبقع، فلو قلته لم تجد أحداً يرد عليك[٤٩]. ومع هذا الذكاء الشديد في مقاتل فإنه لم يكن يتورع عن الكذب، ووضع الآثار على لسان من شاء من الصحابة، والتابعين ﷺ.

حتى اشتهر بأنه من الوضاعين، مع تلفيق الأسانيد لهذه الآثار، وقد روى خارجه أنه مر بمقاتل وهو يحدث الناس فقال: حدثنا أبو النضر الكلبي، قال: فمررت عليه مع الكلبي، فقال: الكلبي، والله ما حدثته بهذا قط.

ثم دنا منا فقال: يا أبا الحسن، أنا أبو النضر، وما حدثتك بهذا قط، فقال: أسكت يا أبا النضر فإن تزيين الحديث لنا إنما هو بالرجال[٥٠].

٧. وإضافة على ما سبق قوله فتفسير مقاتل بن سليمان، إنما هو تفسير بالرأي، وينبغي أن يؤخذ كل ما فيه من آثار- إلا ما صح وهو قليل- على أنه من كلام مقاتل، ومن جملة تفسيره بالرأي، على أن يوضع في الاعتبار أنه كان يتكلم في صفات الله بما لا يحل ذكره، وكان يقول: بالتشبيه والتجسيم والإرجاء، وأنه كان يأخذ عن اليهود والنصارى على القرآن الذي يوافق

كتبهم، وهو يعد من أقدم التفاسير بالرأي، لكنه لم يكن في جملته أمينا: لا من حيث العقيدة، ولا من حيث ما تضمن من آثار[٥١].

اتجاهات التفسير

ومن الملاحظ، أنه ومع نشأة المذاهب والآراء (في العقيدة والفقه)، ومع تقدم علوم البلاغة والنحو وغيرهما من العلوم العربية، نشأت اتجاهات في التفسير، لتخدم هذه المذاهب، وقد استقطبت مدارس بغداد كل هذه الظواهر الناشئة في اتجاهات التفسير، ثم برزت تخصصات المفسرين في تفاسيرهم للقرآن، فعالم النحو يعنى بالإعراب، وعالم البلاغة يهتم بالنكات البلاغية، والعالم بالقراءات يظهر عمله في تفسيره، وهكذا يفعل أهل التصوف والكلام وغيرهم[٥٢]. إذ كل منهم يحاول أن يخضع معنى أو مدلول الآيات القرآنية لصالح عقيدته، أو مشربه أو نزعته أو دعم رأيه، كالخوارج وغيرهم، وحين ظهر التشيع كفكر سياسي في أول الأمر ليس إلا، أصبح للشيعة علماؤهم الذين يدعون لمذهبهم، ويدافعون عنه، ومن بين هؤلاء العلماء المفسرون للقرآن مَنْ تكلفوا في تأويل آياته، لنصرة مذهبهم في التشيع لعلي بن أبي طالب ﷺ وآل البيت رضوان الله عليهم، ونشأ كذلك المعتزلة والجبرية وغيرها من الفرق، فكان للمعتزلة مفسرون يستمدون من مبادئ مذهبهم تفسيرا لبعض آيات القرآن، ويتكلفون في تأويل هذه الآيات لتطابق تلك المبادئ، ومن أشهرهم الزمخشري، والقاضي عبد الجبار، وكان للجبرية أو (الجهمية) مفسرون عمدوا إلى آيات القرآن فاتخذوا منها أدلة لتعزيز وترويج مذهبهم، وراحوا يتكلفون كذلك، في تأويلها لتتفق مع هذا المذهب[٥٣].

أما الفقهاء فقد انطبعت تفاسير مذهبهم بطابع الاستنباط من آيات التشريع في القرآن وأقدمهم، ظهورا في بغداد الإمام أبو حنيفة النعمان[٥٤]. إذ كان له اليد الطولى والريادة الأولى في تفجير علم التفسير، وترسيخ أصوله وإظهار ملامحه في بغداد، وذلك لملازمة علم التفسير لعلم الفقه، وقد كان أبا حنيفة متأثرا بمدرسة الكوفة، لذلك يعتبر في طليعة المؤسسين لعلم التفسير في بغداد رغم أنه كان فقيها بالدرجة الأولى، إلاّ أنه لم يستغن عن الاستشهاد بمعاني آيات القرآن الكريم في آراءه الفقهية، وذلك لشدة التداخل بين طبيعة عمل الفقه والتفسير وحاجة كل منهما للآخر، وهذا شيء لابد للفقيه من الاتصاف به على العموم.

ومن ثم غلب على هذه التفاسير إسم أحكام القرآن، أو الجامع لأحكام القرآن، أو ما أشبه، وهكذا يجد الباحث نفسه أنه أمام تراث ضخم من الكتب التي عنيت بتفسير القرآن، وهي

كتب فيها: الآثار، وفيها الرأي، وفيها العناية بعلوم اللغة العربية، وبالقراءات المذكورة، وفيها الاهتمام ببيان أحكام الفقه، مستمدة من آيات التشريع على اختلاف بين أئمة المذاهب وفقهائها في الأحكام، وفي طرق استنباطها من الآيات، وفيها الاهتمام كذلك بالمذاهب العقائدية المختلفة، ومحاولة الاستدلال لها بآيات من القرآن، بدون تكلف حينا، وبتكلف أحيانا.

الأساليب المتبعة في التفسير والتأويل

والآن لابد من وقفة أخرى ضمن سياق حلقات البحث، عند كلمتي التفسير[٥٥]. والتأويل[٥٦]. لتبين المراد بهما، وطرق استعمال، كل منهما على حدة، أو بالاشتراك، فالتفسير كما أوضحنا- في البداية- مأخوذ من الفسر بمعنى الإبانة وكشف المغطى، وهو يستعمل لإظهار المعنى المعقول، ومثله السفر، لكنه يستعمل لإبراز الأعيان للإبصار، ويقال: سفرت المرأة عن وجهها، وأسفر الصبح، وأما التأويل فقد بين معناه أصحاب المعاجم بمثل قول الفيروز أبادي في القاموس، المحيط: «وأول الكلام تأويله: دبَّره، وقدَّره، وفسَّره، والتأويل، عبارة الرؤيا»[٥٧] ولكن الراغب الاصبهاني- كما سبق قوله في المقدمة- يقرران أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ، والتأويل في المعاني، والتأويل في المعاني كتأويل الرؤيا... الخ[٥٨]. وقد ذكر أن التأويل نوعان: مستكره، ومنقاد، فالمستكره ما يستبشع إذا سبر بالحجة، ويستقبح بالتدليسات الممزوجة، قال: وذلك على أربعة أضرب:

الأول: أن يكون لفظ عام فيخصص في بعض ما يدخل تحته نحو قوله تعالى:﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ ﴾. حمله بعض الناس على علي بن أبي طالب ﷺ فقط.

الثاني: أن تلفق بين أثنين نحو قول من زعم أن الحيوانات كلها مكلفة، محتجا بقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾[٥٩]. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ ﴾[٦٠]. فدل بقوله: ﴿ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ ﴾ أنهم مكلفون كما نحن مكلفون.

الثالث: ما استعين به بخبر مزور أو كالمزور، كقوله تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ ﴾، قال بعضهم: عني به الجارحة مستدلا بحديث موضوع.

الرابع: ما يستعان فيه باستعارات، واشتقاقات بعيدة، كما قال بعض الناس في البقر أنه إنسان يبقر عن أسرار العلوم، وفي الهدهد أنه إنسان موصوف بجودة البحث والتنقير.

أما المنقاد من التأويل فهو ما لا يعرف فيه البشاعة المتقدمة، وقد يقع الخلاف فيه بين الراسخين في العلم، إما الاشتراك في اللفظ، أو لأمر رجع إلى النظم، وإما لنهوض في المعنى أو وجازة اللفظ، ولأهمية مكانة التأويل فقد وردت صوره، في سبع سور من القرآن الكريم هي آل عمران الآية ٧، والنساء الآية٥٩، والأعراف الآية ٥٢، ويونس الآية ٣٩، ويوسف الآية ١٠٠/٤٥/٤٤/٣٧/٣٦/٦ /١٠١، والإسراء الآية١٧، والكهف الآيتين ٨٢/٧٨، وهو في هذه الآيات كلها، وفي جميع السور التي وردت، فيها مادته لم يرد إلا بمعنى الأمر العملي الذي يقع في المآل، تصديقا لخبر أو رؤيا، أو لعمل غامض يقصد به شيء في المستقبل، فليس في أي واحدة منها بمعنى التفسير، ولا بالمعنى الذي اصطلح عليه المتأخرون، من أنه [صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل]، وإذا كان الطبري قد التزم التعبير به في بيان معاني الآيات بقوله: وتأويل الآية عندي- فلا بد أنه كان يريد به حقيقة ما يؤول إليه معنى الآية بعد تفسير مفرداتها، والجمل، الغامضة فيها، فقد كان هذا دون شك هو ما أراد به رسول الله ﷺ عندما دعا لعبد الله بن العباس ﷺ بقوله: «**اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**»[٦١].

وبعد هذه الإشارة الموجزة في هذا البحث إلى نشأة علم التفسير وتطوره، وبعد ذلك الإلمام المركز باختلاف كتب التفسير في أهدافها ومناهجها، وبعد هذا البيان لكلمتي التفسير والتأويل وما بينهما من فروق، يمكن القول بأن بغداد كانت ملتقاً عاما لمجمل التيارات والآراء والاجتهادات التفسيرية والتأويلية لآيات القرآن الكريم على اختلاف المفسرين في مذاهبهم ومشاربهم وتوجهاتهم، ولقد برزت مدارس تفسيرية أخرى في غير بغداد ومدن العراق، وظهرت في بلاد الشام والحجاز ومصر وشمال أفريقيا مدارس تفسيرية بذل فيها علماؤهم جهداً كبيراً، ولقد اشتهر علم التفسير في التاريخ العربي الإسلامي من قبل علماء أفذاذ ساهموا من خلال أراءهم وآثارهم في تطور هذا العلم وتوسيع آفاقه، عبر العصور ضمن حلقات متصلة ومتلازمة ومتكاملة الجوانب في الأغراض والمقاصد.

الخاتمة

لقد تبين لنا من خلال هذا البحث المتواضع بأن علم التفسير علم واسع الأطراف، أو شمس كبرى بين المعارف الدينية تكاد لا تستدرك الإفهام مدى سطوع أنوارها وأبعاد اشعاعاتها، وحملة هذا العلم هم صفوة خلق الله، ومن النخب الممتازة الذين تميزوا بالإلهام الرباني المشحون ببركته المنورة ومنحه الدافقة في بيان غوامضه وشرح مغاليقه.

ثم يأتي علم التأويل المقترن بالتفسير ليضيف نكهة لذيذة إلى هذا العلم ويتلازم معه تلازما وثيقا سعيا لتقريب معاني وأحكام وإشارات القرآن الكريم إلى الأذهان والإفهام في مختلف العصور والأزمان والآماد، فالتفسير كما فهمناه في محتوى البحث هو الكشف أو الإبانة أو الظهور، والتأويل يراد فه على رأي، وعلى رأي آخر يغايره، لأنه مشتق من (الأول) بوزن القول وهو الرجوع.

وفي ميدان علوم القرآن التأويل هو الرجوع إلى وجه يحتملها الكلام لدليل بسند اختيار ذلك الوجه، وعلى هذا فالتفسير هو ما يرجع للألفاظ والتأويل هو ما يرجع للمعاني.

وفي الاصطلاحات المستعملة لدى العلماء في التفسير والتأويل تعاريف كثيرة لها وكلها أراء تتردد بين الاتساع والضيق تبعاً للاجتهاد والرأي والاستنباط، وهي على العموم تكمل بعضها الآخر وتضيف إلى تراث التفسير والتأويل خزينا متراكما لهذين العلمين الجليلين المترابطين، وسيظل باب التفسير والتأويل مفتوحا إلى قيام الساعة في العطاء المتجدد والاستدلال المستمر وليس ذلك بغريب، إذ إن القرآن معجزة خالدة، وتفسير آياته وتأويلها هبة ربانية يمنحها الله لخاصة علمائه، العاملين لخدمة هذا الكتاب السماوي الجليل، خاتم الكتب السماوية الذي نزل على خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ وسيبقى علم التفسير والتأويل ثابتا في مسعاه لخدمة الإسلام والمسلمين إلى يوم الدين.

هوامش البحث

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

(٢) أحمد الشرباصي: قصة التفسير، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، مطابع دار القلم بالقاهرة، المكتبة الثقافية، رقم٥٤، أول فبراير ١٩٦٢م، ص١١.

(٣) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٤) سوره محمد: الآية ٢٤.

(٥) سورة الزمر: الآية ٢٧.

(٦) سورة القمر: الآية ١٧.

(٧) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٥٠٢- ٥٠٣.

(٨) أحمد الشرباصي، قصة التفسير، ص٦.

[٩] أحمد الشرباصي، قصة التفسير، ص٦- ٧.

[١٠] أبو اليقظان الجبوري، دراسات في التفسير ورجاله، القسم الأول، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٧١م، ص٩٥.

[١١] الرازي، مختار الصحاح، ص٣٣.

[١٢] بفتح الهمزة وسكون الواو.

[١٣] أحمد الشرباصي، قصة التفسير.، ص٧.

[١٤] أحمد الشرباصي، قصة التفسير، ص٧، ٩، ٨، بتصرف واختصار.

[١٥] أحمد الشرباصي، قصة التفسير، ص٩.

[١٦] تفسير ابن عباس، مطبوع عدة طبعات، وهو تفسير منسوب إليه على رأي جمع غفير من العلماء والمجتهدين في التفسير.

[١٧] البقرة: الآية ٢٦٩.

[١٨] الشرباصي، قصة التفسير، ص٩- ١٠.

[١٩] الشيخ قاسم القيسي، تاريخ التفسير، طبع المجمع العلمي العراقي، بغداد، ص١٠، وما بعدها.

[٢٠] الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط٢، عيسى البابي الحلبي، بمصر، ١٣٦١هـ، ١/ المقدمة من ص٥- ٢٥ وما بعدها أيضاً.

[٢١] د. مصطفى زيد، التفسير وأعلام التفسير (مقالة) في مجلة الوعي الإسلامي، الكويت العدد الخامس عشر السنة الثانية، ربيع الأول ١٣٨٦هـ/ ١٩يونيو (حزيران) ١٩٦٦م، ص٢١.

[٢٢] د.مصطفى زيد، م.ن، ص٢٠- ٢١، ٤٠ ببعض الإضافات والإيضاحات.

[٢٣] سورة الشورى: الآية ٤٨.

[٢٤] سورة الغاشية: الآية ٢١.

[٢٥] سورة البقرة: الآية ٢٧٢.

[٢٦] سورة القصص: الآية ٥٦.

[٢٧] سورة الغاشية: الآية ٢٢.

[٢٨] سورة فاطر: الآية ٨.

[٢٩] سورة الشعراء: الآية ٣.

[٣٠] سورة النساء: الآية ٨٠.

[٣١] سورة آل عمران: ٣١.

[٣٢] سورة الأنفال: ٢٤.

[٣٣] سورة الأنفال: ٢٤.

[٣٤] سورة الحشر: ٧.

[٣٥] الشيخ علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، ط٢، ص٤٥- ٤٦، والسيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر، تدريب الراوي شرح تقريب النووي، القاهرة، ط١، ص٧٦.

[٣٦] مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ط٢، طبعة المكتب الإسلامي، بدمشق، ص١٥٤.

[٣٧] عبد الحميد محمود، الاتجاهات الفقهية عند المحدثين، القاهرة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٣٠٨ وما بعدها.

[٣٨] روى تفسير زيد راوٍ آخر هو ابنه عبد الرحمن، لكنه شديد الضعف لا تقبل روايته، فلا يحتج به وهو الذي يعينه المحدثون والمفسرون بالمأثور عندما يقولون: روى- أو قال- ابن زيد... وتوفي بالمدينة سنة ١٩٢هـ. يراجع: هامش ص٢٢ من مجلة الوعي الإسلامي.

[٣٩] بين قوسين إشارة إيضاحية.

[٤٠] د.مصطفى زيد، مجلة الوعي الإسلامي، ص٢٢ وما بعدها بتصرف.

[٤١] إبن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ط١، القاهرة، ١٩٥٤: ٤٣/١٠.

[٤٢] مصطفى زيد، الوعي الإسلامي، ص٢٢، بتصرف.

[٤٣] د. مصطفى زيد، الوعي الإسلامي، ص٢٣.

[٤٤] الخطيب البغدادي أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ١٩٦٥م: ١٦٢/٢.

[٤٥] ياقوت الحموي شهاب الدين أبي عبد الله، معجم الأدباء، دار صادر، بيروت، ٤٢/١٨.

[٤٦] طبعت للبخاري ومسلم عدة طبعات ولعل أحسن إخراج لهما هو طبعة، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٣م.

[٤٧] إبن حجر، تهذيب التهذيب: ٢٧٩/١٠.

[٤٨] الخطيب، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد: ١٦٠/١٣.

[٤٩] إبن حجر، تهذيب التهذيب: ٢٨٢/١٠.

[٥٠] ابن حجر، تهذيب التهذيب، ٢٨٠-٢٨٣.

[٥١] مصطفى زيد، التفسير وأعلام التفسير، ص٤٠- ٤١ بتصرف.

[٥٢] أبو اليقظان الجبوري، دراسات في التفسير ورجاله، القاهرة ١/ ١٩٧١م، ص٩٧ وما بعدها.

[٥٣] لمزيد من الإطلاع عن المذاهب والفرق الإسلامية، يراجع: إبن حزم الظاهري، (الفرق الإسلامية) والملل والنحل للشهرستاني.

[٥٤] يراجع عنه: إبن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د.إحسان عباس، طبع دار صادر بيروت ١٩٧٠م، ٥/٣٩- ٤٧.

[٥٥] ف.س.ر، الفسر: البيان وبابه ضرب و(التفسير مثله) و(استفسره) كذا: سأله أن يفسره، يراجع، الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، مختار الصحاح، الكويت، دار الرسالة ١٩٨٣م/١٤٠٣هـ، ص ٥٠٢- ٥٠٣.

[٥٦] (أ.و. ل) (التأويل): تفسير ما يؤول إليه الشيء، المرجع السابق، ص٣٣.

[٥٧] الفيروز أبادي: محي الدين، القاموس المحيط، مطبعة السعادة، مصر، حرف التاء، (مادة التأويل).

[٥٨] د. مصطفى زيد، مجلة الوعي، التفسير وأعلام التفسير، ص٢٤.

[٥٩] سورة فاطر: الآية ٢٤.

[٦٠] سورة الأنعام: الآية ٣٨.

[٦١] د.مصطفى زيد، مجلة الوعي، التفسير وأعلام التفسير، ص٢١- ٢٠- ٢٣- ٢٤- ٤٠- ٤١.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم.**

١. أحمد الشرباصي، قصة التفسير، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، بمصر، مطابع دار القلم، القاهرة ١٩٥٩.
٢. أبو بكر الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، دار الرسالة، الكويت، ١٩٨٣م.
٣. أبو اليقظان الجبوري، دراسات في التفسير ورجاله، ١، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، ١٩٧١م.
٤. إبن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، طبع مصطفى البابي الحلبي، مصر (بلا تاريخ).
٥. إبن خلكان، أبو العباس شمس أحمد، وفيات الأعيان، تحقيق: أحسان عباس، بيروت، ١٩٧٠م.
٦. الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تهذيب التهذيب، ط١، القاهرة، ١٩٥٤م.

٧. عبد الحميد محمود، الاتجاهات الفقهية عند المحدثين، طبع القاهرة ١٩٧٩م.
٨. ابن عباس، عبد الله بن عباس، تفسير أبن عباس ، القاهرة، ط١.
٩. الشيخ علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، ط٢، بغداد ١٩٧٠م.
١٠. الفيروز أبادي، محي الدين، القاموس المحيط، مطبعة السعادة، مصر.
١١. الشيخ قاسم القيسي، تاريخ التفسير، طبع المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٦م،
١٢. مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ط٢، طبع المكتب الإسلامي بدمشق.
١٣. مجلة الوعي الإسلامي، الكويت العدد(٥١) لسنة ١٩٦٦ مقالة للأستاذ مصطفى زيد، التفسير وأعلام التفسير.
١٤. الشيخ محمد عبد العظيم العرفاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، طبع مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٦١هـ.
١٥. ياقوت الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، دار صادر، بيروت.